جهود جان كانتينو في نقل الدّرس الصّوتيّ العربيّ إلى الغرب

Jean Cantino's efforts to convey the Arab vocal lesson to the West

أ. عادل زواقــري♥

تاريخ الاستلام: 10-05-2022 تاريخ القبــول: 06-02-2023

ملخّص: يتناول هذا البحث المعنون بـ: جهود جان كانتينو في نقل الدّرس الصّوتي العربي إلى الغرب، أهم الجوانب الصّوتيّة التي كتب فيها هذا المستشرق وأهم الأفكار الصّوتيّة التي ناقشها خاصّة في كتابيه: دروس في علم أصوات العربيّة الذي ترجمه صالح القرمادي، وكتاب: دراسات في اللّسانيّات العربيّة الذي ترجمه: محمّد الشّاوش، وهما في الأصل كتاب واحد، فقد تطرق جان كانتينو إلى كل الجوانب الصّوتيّة المعروفة عند علمائنا كالجهاز النّطقي ومخارج الحروف وصفاتها والحركات الطّويلة والقصيرة، والنّبر والإيقاع والمقطع.

والهدف من هذا البحث تبيين منهج جان كانتينو في دراسة الصّوتيات العربيّة وكيفيّة ربطه الصّوتيات باللّهجات، وجهوده في دراسة الظّواهر الفونولوجيّة في اللّغة العربيّة ولهجاتها، ومن أهم النّتائج المتوصل إليها: أنّ ما كتبه كانتينو مهم جدا ومن المفيد الاطلاع عليه، وأنّ المستشرقين عموما وكانتينو خصوصًا اطلعوا على تراثنا ونقلوه إلى الغرب ولا شكّ أنّهم استفادوا منه.

♥جامعة عباس لغرور خنشلة، الجزائر، البريد الإلكتروني: zouagriadel05@gmail.com (المؤلّف المرسل).

الكلمات المفتاحيّة: علم الأصوات؛ الفونولوجيا؛ اللّهجات؛ المستشرقون.

Research Summary: This research which is entitled: Jean Cantino's Efforts in Transferring the Arabic Phonetic Lesson to the West, deals with the most important phonetic aspects in which this Orientalist wrote and the most important phonetic ideas he discussed, especially in his two books: Lessons in the Phonology of Arabic Translated by Saleh Al-Qarmadi and Book: Studies in Arabic Linguistics which Translated by: Muhammad Al-Shawsh and they are originally one book. Jean Cantino touched on all the phonetic aspects known to our scholars, such as the vocal apparatus, the exits of letters and their characteristics, long and short kineme, stress, rhythm and syllable.

The main objective of this research is to explain Jean Cantino's approach to studying Arabic phonetics, and how he links phonetics with dialects, and his efforts in studying phonological phenomena in the Arabic language and its dialects. They saw our heritage and transferred it to the West, and there is no doubt that they benefited from it.

key words: phonology; letters; dialects; orientalists.

مقدّمة: الصّوتيات العربيّة التراثيّة غنيّة بالمفاهيم والأفكار لدرجة أنّها مازالت صالحة إلى يومنا، والأكثر من ذلك أنّ تلك المفاهيم والأفكار لقيت اهتماما لافتا من المستشرقين الغربيين، كما أنّ تلك المفاهيم والأفكار لم تكن منعزلة عن لغات العرب، والتي هي– أي لغات العرب– تأديات مختلفة ومتنوعة للسان العربي وهذه ميزة قلما نجدها في اللغات القديمة، عكس لغة اليونان مثلا حيث كانت الفصحى لغة خاصّة بطبقة معينة دون طبقة العوام، ولذلك التفت المستشرقون إلى أهميّة دراسة اللّهجات العربيّة القديمة والحديثة من أجل معرفة الخصائص الصّوتيّة والظّواهر الفونولوجيّة، وهذا ما قام به **جان كانتينو** حين درس اللّهجات

العربيّة المشرقيّة والمغربيّة وحاول ربط ظواهرها الصّوتيّة المختلفة باللّغة العربيّة الفصحى القديمة والحديثة والقراءات القرآنيّة.

فقد تطرق جان كانتينو إلى كل الجوانب الصّوتيّة المعروفة عند علمائنا كالجهاز النّطقي ومخارج الحروف وصفاتها والحركات الطّويلة والقصيرة، والنّبر والإيقاع والمقطع، بل إنّه توسع أكثر بحكم استفادته من اللّسانيّات الحديثة والفونولوجيا، والمناهج العلميّة الحديثة، إذْ قارن بين السّاميّة والعربيّة الفصحى واللّهجات المعاصرة، وحاول أن يكشف العلاقة الموجودة بين طريقة النّطق قديما وحديثا، كما حاول تتبع التغيرات التاريخيّة على الحروف العربيّة، والمستشرق جان كانتينو لم يكن مجرد ناقل لأفكار غيره من نحاتنا العرب والمستشرقين الأوربيين إنّما كان يأخذ بآراء معينة ويرد على بعضها، ويحلل ويجتهد من أجل معرفة حقيقة ما كتبه علماؤنا ومدى صحته وكذا ما كتبه المحدثون في مجال الصّوتيات، والملاحظ على بحوثه أنّه يغلب عليها الطّابع الميداني، ليكون بذلك غير بعيد عما قام به نحاتنا قديما وما تدعو إليه الصّوتيات الحديثة.

ويمكن طرح إشكاليّة البحث كما يلي: هل استطاع جان كانتينو دراسة الصّوتيات العربيّة انطلاقا من اللّهجات العربيّة المختلفة دراسة وصفيّة دقيقة اعتمادا على أحدث ما توصل إليه البحث الصّوتي الغربي أم لا؟ ولأجل الجواب عن هذه الإشكاليّة يمكن تدوين الفرضيات التاليّة:

– جان كانتينو درس الصّوتيات العربيّة في اللّهجات العربيّة الحديثة اعتمادا على معطيات التراث فقط؛

– استفاد كثيرا ممّا توصل إليه البحث الصّوتي الغربي والمطبق على اللغات الأوروبيّة وبالتالي فقد أسقط تلك النّتائج على اللّهجات العربيّة؛

– المسائل الصّوتيّة في العربيّة المعاصرة مختلفة عن تلك التي في العربيّة القديمة؛

– المعطيات التي توجد في الكتب الصّوتيّة التراثيّة العربيّة لم تعدّ لها قيمة علميّة بالنّسبة لما توصل إليه البحث الصّوتي المعاصر.

وهذا البحث يهدف إلى:

– معرفة سبب دراسة المستشرقين لتراثنا العربي خاصّة في مجال الصّوتيات؛

– تبيين جهود جان كانتينو في دراسة الصّوتيات العربيّة، خاصّة لما ربطها باللّهجات العربيّة المعاصرة والقراءات القرآنيّة؛

– معرفة مدى تطابق نتائج البحث الصّوتي التراثي مع نتائج البحث الصّوتي المعاصر خاصّة في مقامات تطابق المادة المدرسة التي لم يطرأ عليها تغير في طريقة الأداء.

ولأجل ذلك كلّه كانت منهجيّة البحث هي المقارنة مع التحليل، لأنّ آراء جان كانتينو تحتاج إلى مقارنتها مع ما قاله علماؤنا قديما وأبرز الآراء المعاصرة التي تتميز بالرّسوخ والتمكن.

1–التعريف بـ: جان كانتينو(Jean Cantineau)[1]: (جان كانتينو 2017م): لساني فرنسي ولد في بلدة (Epinal) شرق فرنسا في 9 جوان 1899م، وتوفي في 8 أفريل 1956م، من علماء اللّغة في النّصف الأوّل من القرن العشرين تحصل على الإجازة في الآداب الكلاسيكيّة ثم شهادة الدّكتوراه في التاريخ، غادر فرنسا بعد الحصول على الإجازة، وانتقل إلى سوريا حيث قضى في المعهد خمس سنوات، فمكنته الإقامة في هذا المعهد من الاطلاع عن كثب على ثراء الواقع اللغوي في الشّرق الأوسط وتنوعه فأنجز أعمالا تمثّلت في جمع النّصوص وتدوينها ودراستها، وإثر إقامته بدمشق انتقل إلى كليّة الآداب بالجزائر، حيث جمع بين التدريس (السّاميّة المقارنة والعربيّة واللّسانيّات العامّة) والدّرس، مواصلا البحث في مجال اللغات الساميّة واللّغة العربيّة واللّسانيّات الجغرافيّة وعلم اللّهجات، وكان حريصًا على

أن يوفّر لطلبته أدوات العمل المساعدة، فألف لطلبة الإجازة كتاب (Cours de phonétique arabe)، ثم نقل إلى الفرنسيّة كتاب الأمير نيكولاي تروباتسكوي (N.S.Troubetzkoy) (Principes de phonologie) مبادئ في الفونولوجيا، فزاد بذلك العمل إلى روافد النّحو الكلاسيكي وأعمال المستشرقين واللّسانيّات التاريخيّة والبنويّة الأوروبيّة وعلم اللّهجات رافدا نظريا آخر كان من أهم ثماره كتابه (études de linguistique arabe) دراسات في اللّسانيّات العربيّة.

1- الحركة التأليفيّة والتحول الفكري لدى جان كانتينو: معلوم أنّ أي مؤلِّف يمر في حياته العلميّة بمراحل تتغير فيها نظرته لكثير من الحقائق العلميّة والموضوعات البحثيّة في تخصّصه، وهذا ما حدث للمستشرق الفرنسي جان كانتينو، فقد مر بمرحلتين مهمتين في نظرته لقضايا الصّوتيات: المرحلة الأولى كانت قبل ترجمته لكتاب: مبادئ الفونولوجيا سنة 1949م لتروبتسكوي، والمرحلة الثّانيّة بعد ترجمة هذا الكتاب، فبعد اطلاعه على كتاب مبادئ الفونولوجيا ازداد تعمقا في قضايا الفونولوجيا ووظفها أحسن توظيف في دراسة أصوات اللّغة العربيّة، لدرجة أنّه أعاد النّظر في الجزء الأوّل من كتابه: دراسات في اللّسانيّات العربيّة والذي عنونه بـ: دروس في علم أصوات العربيّة، وأضاف أفكارا كثيرة إليه، كما أنّ توجّهه زاد تعمّقًا في اللّهجات العربيّة لأنّ قضايا الفونولوجيا تتجسّد أكثر حين يقارن الدّارس بين التنوّعات الصّوتيّة الكثيرة في اللّهجات التي تنتمي إلى لسان واحد، فكانت بداية اهتمامه باللّهجات العربيّة بلهجات أهل المدر في بلاد حوران وجبل الدّروز سنة 1933م، وتقطع عمله وبحثه في اللّهجات بسبب عدم استقراره في بلاد الشّام حيث توجه إلى الجزائر وصار أستاذا فيها.[2]

ومن أعماله التي سبقت ترجمة كتاب: مبادئ الفونولوجيا: كتاب: اللسان العربي الدّارج في تدمر (le dialecte arabe de palmyre) سنة 1934 م ثم

كتاب: نحو لغة تدمر من خلال النّقوش (Grammaire du palmyrien épigraphique) سنة 1935م، وكتاب دروس في علم أصوات العربيّة: (Cours de phonétique arabe) الذي ألّفه في الجزائر سنة 1941 ونشره في الجزائر في نسخ قليلة ليستفيد منه الطّلبة، وقد ترجمه صالح القرمادي ونشره سنة 1966م، وهو أوّل عمل صوتي له[3] (جان كانتينو، 1966م)، ثم ترجم كانتينو بعد ذلك كتاب تروبتسكوي: (Principes de phonologie) سنة 1949م، (مبادئ الفونولوجيا) وقد كان هذا الكتاب مرحلة جديدة في تفكير جان كانتينو لأنّه استفاد من الأفكار الجديدة في دراسة وظيفة الأصوات، ولذلك فإنّه بعد ترجمته لهذا الكتاب أضاف أمورا كثيرة في الصّوتيات والفونولوجيا، فقد تغيرت نظرته عمّا كان عليه لما ألف كتابه: دروس في علم أصوات العربيّة، ولذلك فإنّ المتصفّح لما كتبه بعد ترجمة كتاب: مبادئ الفونولوجيا يجد أنّه أضاف أمورًا كثيرة لم يتطرّق إليها في كتابه: دروس في علم أصوات العربيّة.

2- جان كانتينو وعلم اللّهجات: ربّما كثير من المهتمين بكتابات المستشرق جان كانتينو يعتقدون أنّه درس الصّوتيات العربيّة أكثر من أي موضوع آخر لكن جان كانتينو درس اللّهجات أكثر وربطها بالأصوات، بل إنّي لاحظت أنّ كثيرا من المستشرقين اهتموا باللّهجات العربيّة وحاولوا دراستها من حيث المقارنة بينها في زماننا أو المقارنة بين اللّهجات العربيّة المعاصرة واللّهجات العربيّة القديمة والتي كانت تعرف بلغات العرب في الأصل، وكانت بداية جان كانتينو في دراساته اللهجيّة مع لهجة تدمر، حيث فتحت له الباب على آفاق جديدة في البحث، ستصبح بعد ذلك التوجه الرّئيس لبحوثه في علم اللّهجات أي الدّراسة العلميّة للهجات العربيّة الحديثة[4] (جان كانتينو،2017م)، ولذلك فقد أنجز أطروحة الدّكتوراه في هذا المجال وكان عنوانها: لهجة تدمر العربيّة، فقام بدراستها دراسة عميقة جدا، ثم وسع مجال دراساته اللهجيّة خاصّة أنّ الاحتلال الفرنسي كان في

سوريا، حيث استثمر هذا الظّرف لصالحه وتنقل بحريّة تامّة بين القبائل السّوريّة حتى لما انتقل إلى الجزائر وصار أستاذا في جامعة الجزائر لم ينقطع عن سوريا ولهجات قبائلها بل بقي متواصلا معها وعاد إليها أكثر من مرة مستقصيا ما لم يستقصه من قبل، فقد عاد في سنوات: 1934، 1935، 1936، ليتعمق أكثر في دراسة لهجات أهل المدر في بلاد حوران وجبل الدّروز–كما أشرت سابقا– ولم يظهر كتابه النّهائي حول اللّهجات إلاّ سنة 1946م، ونظرا لطول مدة إنجاز هذا الكتاب ورحلات الرّجل فقد كان أكثر دقّة وصرامة في المنهجيّة، فضمنه دراسة في الفونولوجيا، وأطلسا لغويا، كما استثمر تواجده في الجزائر وانتبه إلى الظّواهر اللهجيّة في الجزائر فقام بدراسات عدّة، خاصّة في العاصمة وقسنطينة.

3– علم الأصوات وعلم اللّهجات عند جان كانتينو: لِجَانْ كانتينو كتابان مهمان –هما في الأصل كتاب واحد– أحدهما ركز فيه على علم الأصوات وهو كتاب: دروس في علم أصوات العربيّة، والآخر ركز فيه على علم اللّهجات واللّهجات العربيّة وهو: دراسات في اللّسانيّات العربيّة، وفي ثنايا الكتابين لا نجد غياب الفونولوجيا، فهو متأثر بها تأثرا واضحا، وقد جُمعا في كتاب واحد لاحقا عنوانه: دراسات في اللّسانيّات العربيّة، لكن جان كانتينو في البداية نشر القسم الأوّل مستقلا وترجمه صالح القرمادي، فهما كتاب واحد إلاّ أنّ جزأه الأوّل نشر مستقلاً في البداية لأسباب متعلّقة برغبة المؤلف في توفير مادة صوتيّة واضحة لطلبته.

4–1–علم الأصوات: (La Phonétique) درس جان كانتينو الجوانب الصّوتيّة في الكتاب الأول المنشور مستقلا، حيث جاء في أربعة أقسام:

4–1–1–معلومات عامة: كتعريف علم الأصوات، والإشارة إلى الجهاز الصّوتي، وكيفيّة إحداث أصوات الكلام البشري، وترتيب أصوات الكلام البشري وما يلاحظ أنّ جان كانتينو في تعريفه لعلم الأصوات يرى أنّ هذا العلم ينقسم

إلى الـ **(Phnétique)** في حد ذاته أي علم الأصوات الذي يدرس الأصوات من حيث مخارجها وصفاتها وسماعها، وعلم وظائف الأصوات **(Phonologie)** وهو العلم الذي يدرس وظيفة الأصوات[5](جان كانتينو، 1966).

4-1-2-دراسة في نظام الحروف: حيث تحدث عن نظام الحروف في العربيّة كمخارج الحروف وصفاتها وترتيبها باختلاف معايير الترتيب، فتحدث عن النّظام الصّوتي للغة العربيّة القديمة كما درسها الصّوتيون العرب، والذين هم في الأصل إمّا نحاة بالدّرجة الأولى مثل سيبويه وابن يعيش وإمّا علماء تجويد مثل ابن الجزري، وإمّا أطباء وفلاسفة مثل ابن سينا، أو حتى مفسرون مثل الرّازي، فتحدث عن جميع حروف العربيّة وذلك إمّا:

-حسب النّقطة التي يقوم عندها ذلك الحاجز، أي حسب مخارج الحروف مثل الحروف الشّفويّة والحروف الشّفويّة الأسنانيّة والحروف التي بين الأسنانيّة والحروف الأدنى حنكيّة...[6] (جان كانتينو، 1966م)؛

-حسب درجة أهميّة ذلك الحاجز، أي درجات الانفتاح، مثل: الحروف التي الانفتاح فيها معدوم وهي الحروف الشّديدة (Occlusives)نحو: الباء والتاء والدّال والكاف والقاف والهمزة، وأضاف الـ: (P) الموجودة في العربيّة حين ننطق في حالات معينة لمّا تتحول الباء المجهورة الى مهموسة، وكذلك الـ: (G). إضافة إلى الحروف التي الانفتاح فيها ضعيف جدا وتسمى هذه الحروف: التي بين الشّدة والرّخاوة أو الحروف الرّخوة (Spirantes)، مثل الفاء والثّاء والذّال والسّين والزّاي... وذكر حروفا أخرى توجد في اللّهجات العربيّة وهي الحروف التي هي وسط بين الحروف الشّديدة وبين الحروف الرّخوة (شديدة-رخوة) (Affriquées)؛ حيث يكون الجزء الأوّل من الحرف شديدا والجزء الثّاني منه رخوا ، وذلك مثل ما يعرف بالجيم المعطشة[7]، تنطق هكذا: (دج)، والحرف المنطوق هكذا(تش) و(تس)، وهي توجد في اللّهجات، كما نجد هنا الحروف التي تعرف بالخيشوميّة

(Nazales) حيث ينغلق الفم عند النّطق بها لكن الهواء يتسرب قليلا من الأنف..[8](جان كانتينو،1966م)؛

-حسب مختلف الخاصّيات التي تصاحب قيام ذلك الحاجز(أي صفات الحروف): فلكل حرف صفة تميزه، بل لكثير من الحروف صفات مشتركة تجمعها وتميزها عن غيرها، وهذا هو الغالب، وقد ذكر علماؤنا قديما هذه الأمور، وتحدث جان كانتينو عنها أيضًا في كتابه دروس في علم أصوات العربيّة، فمن الحروف نجد: الحروف المضعفة وقد شرحها كانتينو بقوله: ((وهي التي يمتد النّطق بها فيضاهي مداها مدى حرفين بسيطين تقريبا وترسم هذه الحروف عادة في الأبجديّة الأوروبيّة بحرفين متتابعين "ب ب"(bb)[9](جان كانتينو،1966م)، ونجد كذلك- من حيث الصّفات- الحروف المجهورة(Sonores) مثل الباء والدّال و(القاف) كما رسمها المؤلّف أي(G) ويوجد بكثرة في اللّهجات العربيّة المعاصرة... والحروف المهموسة (Sourdes)، وهي كما وصفها المؤلّف ((التي لا نزيز للأوتار الصّوتيّة فيها نحو الياء (p) والتاء والكاف...))[10](جان كانتينو 1966م) والحروف المفخمة[11] مثل: الصّاد والطّاء والظّاء، ومصطلح المفخم لم يستعمله جميع اللغويين العرب القدامى، فسيبويه استعمل مصطلح المطبقة في مقابل المنفتحة لأنّه-كما هو حال معظم الصّوتيين العرب- يضع الصّفة وما يقابلها بالضّد مثل: المطبقة والمنفتحة، المجهورة والمهموسة، الشّديدة والرّخوة[12](سيبويه 2009م)، وابن سينا استعمل مصطلح الإطباق ولم يستعمل المفخم[13] (ابن سينا) كما أنّ ابن جني يستعمل أيضًا المطبق بدلا من المفخم[14](ابن جني 1433هـ/2012م)، ومن الذين استعملوا مصطلح الإطباق أو الانطباق ابن الجزري حيث يقول: ((ومنها الحروف المنفتحة، وضدها المنطبقة والمطبقة والانطباق من صفات القوة وهي أربعة: الصّاد والضّاد والطّاء والظّاء)) [15] (ابن الجرزي 1418هـ/1998م)، فجان كانتينو فضل مصطلح المفخم رغم أنّه ليس

هو المشهور بين علمائنا قديما خاصّة النّحاة منهم، وقد ذكر نوعا من الحروف دون أن يجد لها أمثلة في العربيّة وهي الحروف الملينة(Moullées)، وذكر صفات أخرى موجودة في اللّهجات العربيّة المعاصرة دون الفصحى[16] (جان كانتينو، 1996م).

بعد ذلك تطرّق إلى نظام الحروف في السّاميّة عموما فتحدث عن النّظام الصّوتي للغة السّاميّة التي تفرعت منها لغات عدة قديمة، وبعض هذه اللغات تفرّعت منها لغات أخرى أيضا، مثل اللّغة الأكاديّة التي تفرعت منها: الأشوريّة والبابليّة، واللّغة الكنعانيّة التي تفرّعت منها: العبريّة والفينيقيّة والمؤابيّة، ولغات أخرى لم تتفرّع منها لغات مثل العربيّة والآراميّة، وقد انتبه جان كانتينو أثناء دراسته للنظام الصّوتي السّامي أنه يتكون من مجموعات مثلثة عدة وسماه أيضًا ثواليث مركبة من ثلاثة أحرف من مخرج واحد [17] (جان كانتينو 1966م)، وهذه المسألة مهمّة جدا في الفونولوجيا الحديثة، فقد تحدث الفونولوجيون عنها في سياق أنواع المتقابلات التي منها ما يكون بحسب تناسبها فيما بينها مثل: B وP، فهما من مخرج واحد والجامع بينهما هو الاختلاف: الجهر /الهمس، وتوجد متناسبات ذات ثلاثة أطراف أو ثواليث مركبة كما يقول جان كانتينو، وذلك مثل: B وP و M [18] ، فوجود ستة ثواليث مركبة من مخرج واحد هو أمر لا يمكن توفره في لغة متولدة من اللّغة السّاميّة الأم، لكن هذه الميزة تحقق التقارب بين اللغات السّاميّة وتجعل المقارنة بينها سهلة، وقد لاحظ أمرا آخر لفت انتباهه وهو أنّ أربعةً من هذه الثّواليث من مخرج الأسنان، مثل: التاء والدّال والدّال المفخمة.

ثم نظام الحروف في العربيّة القديمة كما جاءت في كتب نحاة العربيّة الأوائل كسيبويه وابن يعيش، ثم نظام الحروف في اللّهجات العربيّة المعاصرة، وفي خضم ذلك تحدث كثيرا عن التّطورات الحاصلة على الحروف العربيّة خاصّة في اللّهجات، وقد لاحظ أنّ العربيّة الفصحى تكثر فيها الأصوات المنعزلة أي التي

لا تنتمي إلى أزواج أو ثواليث وعددها عشرة حروف، بينما في اللّهجات العربيّة المعاصرة فإنّ ظاهرة الحروف المنعزلة فيها قليلة حيث صارت أكثر انتظاما وذلك إمّا بحذف الحروف المنعزلة أو بدخولها في مجموعات ثنائيّة أو ثواليث[19] (جان كانتينو 1966م).

4-1-3- دراسة نظام الحركات: حيث تحدث عن نظام الحركات عموما في اللغات البشريّة وأعطى أمثلة من الفرنسيّة والتركيّة... ، وعن درجات الانفتاح في الحركات لأنّ أهم ميزة في الحركات هي الانفتاح ودرجات ذلك، فهناك حركات منفتحة وأخرى منغلقة، ثم تحدث عن نظام الحركات في السّاميّة التي توجد فيها ثلاث حركات، كل واحدة منها تجيء إمّا قصيرة أو طويلة، ثم نظام الحركات في العربيّة القديمة، ففيها ثلاثة أجراس كما عبّر كانتينو، كل جرس منها له صورتان إمّا قصيرة أو طويلة، أي الحركة القصيرة والطّويلة، فنجد الضّمة والضّمة الطّويلة(المشبعة بالواو)، والفتحة الطّويلة(المشبعة بالألف) والكسرة والكسرة الطّويلة (المشبعة بالياء)، وحاول تأصيل هذا المفهوم كما هو عند نحاتنا قديما فالحركة هي حركة الحرف أي مجرد ذيل له، ففي العربيّة ثلاث حركات أساسيّة هي الفتحة والكسرة والضّمة، مع أضرب أخرى عند الاقتضاء مثل الإمالة والإشمام، وتلك الحركات القصيرة قد تتحول إلى حركات طويلة ثلاث أيضًا، حين تجتمع الحركات القصيرة مع أنصاف الحركات أي: الواو والألف والياء، وتسمى حروف المد أي حروف مد الحركات السّابقة لها[20](جان كانتينو 1966م) والحركات الطّويلة تتعرض أيضًا أكثر من الحركات القصيرة إلى مختلف الاعتلالات كالإمالة والإشمام والتفخيم، خاصّة في القرآن الكريم حيث تطول مدة نطقها فيزيد طولها ومدها عن الحد المعروف في العربيّة الفصحى العاديّة، وهناك حركات قصيرة جدا-كما ذكر جان كانتينو- عرفت منذ العربيّة القديمة سمّاها

النّحاة بالرّوم والاختلاس، ولم يهمل المؤلف نظام الحركات في مختلف اللّهجات العربيّة المعاصرة[21] (جان كانتينو 1966م).

4-1-4- دراسة في المقطع وفي نبرة الكلمات ونبرة الجمل وفي الإيقاع:

يبين هنا جان كانتينو أهميّة المقطع (Syllabe) في حدوث الكلام ويعرفه كما يلي: ((إنّ إصدار جملة من الجمل أو لفظ من الألفاظ هو عبارة عن إصدار سلسلة متتابعة من الأصوات يتطلب النّطقُ بها القيامَ بطائفة من عمليات الانفتاح والانغلاق في جهاز التصويت، وإنّ الفترة الفاصلة بين عمليتين من عمليات غلق جهاز التّصويت (سواء أكان الغلق جزئيا أم كلّيًا) هي التي تمثل المقطع))[22] (جان كانتينو 1966م)، والمقطع عموما كما في الفرنسيّة نوعان: مقطع مفتوح ومقطع منغلق، هذا التقسيم من حيث نوع الحرف الذي ينتهي به المقطع، فالمنفتح مثل كلمة: (repu) فيها مقطعان منفتحان،(re)و(pu) ، أمّا المنغلق فمثل كلمة: (Victor)، فيها مقطعان منغلقان هما: (vic) و(tor)، أمّا من حيث الطّول والمدى فهناك مقطع قصير ومقطع طويل، فالمقطع القصير ينتهي بحركة قصيرة فهو منفتح وجوبا، مثل كلمة: كَتَبَ، فهي متكوّنة من ثلاثة مقاطع قصيرة، أمّا المقطع الطّويل فهو الذي يختم بحركة طويلة أو حرف ساكن، ففي كلمة: كَتَبْنا نجد المقطعين الطّويلين: تبْ ونا [23] (جان كانتينو 1966م)، وتعمق المؤلّف أكثر في حقيقة المقطع في العربيّة القديمة واللّهجات العربيّة المعاصرة. أمّا النّبرة (Accent) كما يعرفها ((هي إشباع مقطع من المقاطع بأن تقوى إمّا ارتفاعه الموسيقي أو شدته أو مداه أو عدة عناصر من هذه العناصر في نفس الوقت وذلك بالنّسبة إلى نفس العناصر في المقاطع المجاورة))[24](جان كانتينو 1966م)، ويوضح جان كانتينو أنّ النّبرة بهذا المفهوم لم ترد في كتب النّحاة العرب القدامى ولا في كتب علماء القراءات، لكن المستشرقين الأوروبيين تحدثوا عن وجودها في اللّغة العربيّة، ففي نظر الأوربيين أنّ النّبرة في كلمة: "قـــا

تل" هو في المقطع" قا"، لكن كانتينو يرد عليهم بأنّ هذا التحليل لا يعتمد على أي رواية عربيّة قديمة، والنّحاة العرب وعلماء القراءات هم أدرى النّاس بلغتهم فليس منطقيا أن يغفلوا عن مسألة كهذه، وذكر رأيًا مهمّاً للمستشرق: مايار لمبار (Mayer-lambert) أنّ هؤلاء المستشرقين استلهموا هذه الفكرة –أي فكرة النّبرة– من أفواه المثقفين المصريين، والأمر لا يختلف في اللّهجات العربيّة المعاصرة أيضا، فظاهرة النّبرة فيها غير ثابتة أو قارة أو واضحة، وهو يخالف بذلك بعض المستشرقين الذين قالوا بأنّ اللّهجات العربيّة فيها النّبرة بشكل واضح، ووصف رأيهم بالمبالغ فيه، وبالنّسبة إليه أنّ نبرة الكلمة غير قارة وليست لها قاعدة واضحة، بينما نبرة الجملة فتوجد في بعض اللّهجات خاصّة لهجات البدو الرّحل في شمال شبه الجزيرة العربيّة[25] (جان كانتينو 1966م). وتحدث في الأخير عن جانب صوتي آخر هو الإيقاع (Rythme)ويعرفه قائلا: ((هو تردد ارتسامات سمعيّة متجانسة بعد فترات ذات مدى متشابه))[26] (جان كانتينو 1966م)، وأشار إلى الإيقاع الموجود في لغات غير لغة العرب كالفرنسيّة واللغات الهندوأوربيّة القديمة كاللّغة السّنسكريتيّة واليونانيّة واللاتينيّة حيث يكون الإيقاع عندهم بالمقابلة بين المقطع الطّويل والمقطع القصير، وهذا ما يوجد في العربيّة القديمة من خلال الشّعر العربي، أمّا في اللّهجات العربيّة فقد اعتل الإيقاع اعتلالا شديدا لذهاب عدد كبير من المقاطع القصيرة، لأنّ اللّهجات أكثر عرضة للتغير[27] (جان كانتينو 1966م).

4-2- علم **اللّهجات**[28]**:(Dialectologie)**: في البداية لم يكن جان كانتينو مهتما مباشرة باللّهجات، لكنّه فيما بعد صار متخصصاّ فيها مهتما بها أشد الاهتمام، خاصّة أنّ رسالة الدّكتوراه التي أنجزها كانت في علم اللّهجات (عنوانها: لهجة تدمر العربيّة)، والذي حفزه أكثر لدراسة اللّهجات العربيّة المعاصرة هو تأثره بمنتوج حلقة براغ المتمثل في الأفكار الفونولوجيّة الجديدة، حتى مؤلّفه الأوّل

المعنون بـ: دروس في علم أصوات العربيّة الذي نشره سنة1941م- وهو في الأصل جزء من كتاب: دراسات في اللّسانيّات العربيّة- أعاد النّظر فيه؛ حيث أضاف فيه أفكارا كثيرة لها علاقة بالفونولوجيا ونشره مرّة أخرى.

إنّ الاهتمام باللّهجات لا ينفصل -غالبًا-عن الصّوتيات والفونولوجيا، هذه العلوم الثّلاثة تملأ صفحات كتاب: دراسات في اللّسانيّات العربيّة، بما فيه الجزء الذي نشره سنة 1941 مستقلا وهو: دروس في علم أصوات العربيّة، ويمكن أن نلحظ أمرين مهمّين:

أوّلا: أنّ القسم الأوّل من الكتاب الذي نشره سنة 1941م خصّصه للصّوتيات لكنّه في كل مرة يدرس فيها الظّواهر الصّوتيّة يربطها باللّهجات العربيّة المعاصرة من خلال التحولات التي حصلت على أنظمة الحروف كمخارج الحروف مثلا وصفاتها وقضيّة الأوتار الصّوتيّة وظاهرة الإدغام ونظام الحركات والمقطع والنّبر والإيقاع.

ثانيا: أنّ كتاب: دراسات في اللّسانيّات العربيّة في نسخته النّهائيّة ركز في أقسامه الأخرى غير القسم الأوّل-وهو دروس في علم أصوات العربيّة-على بعض اللّهجات العربيّة المعاصرة مثل لهجة حامة قابس بتونس، ثم اللّهجات العربيّة المغربيّة، ثم الحديث عن علم اللّهجات عموما ولهجات مناطق: السّعوديّة والصّحراء السّوريّة العراقيّة الأردنيّة، وبلاد العرب الجنوبيّة: كاليمن وصحراء الدّهناء والسّاحل الجنوبي؛ عمان وزنجبار، وبلاد سوريا ولبنان وفلسطين والأردن وبلاد مصر والسّودان المصري وإفريقيا الوسطى ومنطقة بنغازي وطرابلس ليبيا والبلاد التونسيّة والبلاد الجزائريّة ...

إنّ اللّهجات العربيّة أو الالسّن الدّارجة كما ترجمها صالح القرمادي كثيرة ومختلفة عن بعضها البعض، ولذلك فالظّواهر الفونولوجيّة فيها كثيرة جدا والاختلافات الصّوتيّة يصعب حصرها، لأنّ البلاد العربيّة واسعة جدا، وهذه

المناطق والبلاد مرت بظروف تاريخيّة تحوليّة كبيرة وشديدة، فالأمر يختلف أشد الاختلاف عن البلاد الأوروبيّة، لذلك نجد أنّ الدّراسات الاستشراقيّة للهجات العربيّة كثيرة جدا، خاصّة دراسات المستشرقين الألمان، نذكر منها: ثلاثة نصوص عربيّة من حامة قابس لـ: ج، مارسي (G Marcais)، والتي نشرت سنتي: 1931، 1933م، وبحث: فونولوجيا اللهجة المغربيّة لـ: زيليق سابتاي هارّيس الأمريكي (Z Sabbetay Harris) سنة 1950م، وفولارس (Vollers) في كتابه: اللّهجات واللّغة المكتوبة في العربيّة العليا سنة1906م...[29](جان كانتينو 2017م)، ففي مبحث: التحليل الصّوتمي[30] للهجة حامة قابس تطرق جان كانتينو إلى الفونيمات الموجودة في لهجة حامة قابس وهي حوالي ثلاثين حرفا، أمّا الحركات فهي خمس، منها فتحة ممالة طويلة وضمة نصف منغلقة طويلة، وذكر بعض الحروف المتميزة في نطقها مثل: النّون الخلفيّة الأقصى حنكيّة أو الغشائيّة واعتبرها نطقا خاصًّا للنون المعروفة في الفصحى، وكذلك الحرف الشّديد الخلفي الغشائي المهموس الذي ينطق بانغلاق مصاحب في مستوى الحنجرة ويقصد هنا: القاف، مثل: "وقيل" أي: "ربّما"[31] (جان كانتينو 2017م)، وفي هذه اللهجة ظواهر صوتيه متعلقة بالتفخيم مثل كلمة: "مفروڤ" فالفاء هنا مفخمة، لكن لم تؤد دورا تمييزيا في المعنى، يعني أنّ تفخيم الفاء لا تأثير عليه في المعنى، ومن الحالات التي يرد فيها الزّوجين: السّين والصّاد في كلمة واحدة بتعدّد الاشتقاق ويتم تحييده، أي أنّه لا يؤخد بعين الاعتبار في تغير المعنى، المثال التالي: في لهجة حامة قابس: "رْخِسْ" أي: هبط ثمنه ورخص و"بِرخاص" أي: سيهبط ثمنه وسيرخص، فالكلمة واحدة لكن مع الاشتقاق أحيانا ينطق الحرف الأخير سينا وتارة صادا، لكن يتم تحييد ذلك كما يقول جان كانتينو[32] (جان كانتينو 2017م).

وفي مبحثه عن اللّهجات العربيّة المغربيّة انطلق من مقال هاريس : صوتميّة (فونولوجيّة) اللهجة العربيّة المغربيّة، الذي لم يستسغ ما جاء فيه خاصّة ما تعلق بالنّظام الحركي المغربي، خاصّة أنّ هاريس اعتمد في دراسة اللهجة المغربيّة على رجل وامرأة، واللهجة التي درسها هي لهجة الدّار البيضاء، ونقده لأنّه لم يستعن بلهجات سبق دراستها وجمع أكبر قدر من النّصوص لها كدراسات ويليام مارسي مثلا، ولذلك فقد وقع هاريس– كما يرى كانتينو– في أخطاء كثيرة مثل نظام بالحركات القصيرة الذي يرى أنّها أربعًا هي: الفتحة والكسرة والضّمّة والفتحة الممالة، أمّا الفتحة الممالة في نظر كانتينو فهي ليست حركة مستقلة مثل الفتحة والضّمّة والكسرة، إنّما هي تمثيل للفونيم الجامع في حالات معينة والخلط بين الحروف مثل الخلط بين القاف والكاف، أو بين الخاء والحاء، وأخطاء في معاني الكلمات وشرحها، مثل: "نسيبو" فمعناها ليس: أبوه الشّرعي، إنّما "حموه" أو "صهره"[33] (جان كانتينو 2017م)، لقد كان تركيز جان كانتينو في هذا المبحث عن الأخطاء المنهجيّة والموضوعيّة التي وقع فيها هاريس لما درس اللّهجة العربيّة المغربيّة.

أمّا في مبحث: علم اللّهجات العربيّة فلم يتحدث عن هذا العلم كما يظهر من خلال العنوان، إنّما تحدث عن المناطق العربيّة التي تنتشر فيها اللّهجات العربيّة المعاصرة، انطلاقا من الدّراسات اللّهجيّة التي قام بها اللّسانيّون والرّحالة الغربيون بداية من القرن التّاسع عشر، فذكر في هذا المبحث أهم الأعمال التي أنجزها المستشرقون في دراسة اللّهجات العربيّة مشرقا ومغربا، وقد لاحظ أنّ كثافة الدّراسات اللّهجيّة للمستشرقين تختلف من منطقة إلى أخرى، فمثلا منطقة السّعوديّة تقل فيها الدّراسات اللهجيّة مقترنة مع الدّراسات التي توجد في منطقة اليمن وسوريا، وفي هذا المبحث قائمة لمستشرقين كثيرين جدا غير معروفين بين الباحثين العرب، لأنّ أسماءهم لا ترد في كتبهم إلا قليلا، بل إنّ أعمال هؤلاء

المستشرقين لم تترجم بعد فهي مازالت باللغات التي كتبت بها، ومن هذه الأسماء: أ.سوزين (A.Sosin) صاحب كتاب: لغة بدو عنيزة، و.ر. مونتاني (R.Montagne) صاحب: القصص الشّعريّة البدويّة، و: أ.روسي (E.Rossi) صاحب مقال: ملاحظات في علم اللّهجات في اليمن، وملاحظات جديدة بشأن لهجات اليمن، والقائمة طويلة جدا[34] ، والملاحظ أنّ اللّهجات العربيّة كثيرة جدا وكثير منها غير مدروس في الدّراسات اللّسانيّة العربيّة الحديثة، كما أنّ هذه اللّهجات تتضمّن ظواهر صوتيّة وفونولوجيّة كثيرة جدا، وقد رأينا نماذج منها في التحليل السّابق، وما لم أذكره كثير أيضًا، ومتصفّح ما كتبه جان كانتينو بدقة يجد هذا الظّواهر الموجودة في اللّهجات العربيّة المعاصرة.

5- منهج جان كانتينو في الدّراسة والتحليل: إنّ القيمة العلميّة لما قدّمه جان كانتينو من دراسات عن الصّوتيات العربيّة وكذا للهجات العربيّة والجوانب الفونولوجيّة يتحدد من خلال عدة جوانب ويمكن تقديمها على شكل تساؤلات:

أوّلا: ما هي منطلقات جان كانتينو في دراساته الصّوتيّة واللّهجيّة والفونولوجيّة؟ هل انطلق من الدّراسات الاستشراقيّة المعاصرة فقط أم اعتمد على كتب النّحاة الأوائل كسيبويه وابن يعيش؟

ثانيا: هل تتبع التغيرات التاريخيّة للأصوات منذ القديم أم انطلق من العربيّة الفصحى المعاصرة ولهجاتها فقط؟

ثالثًا: المنهج العلمي الذي اتبعه جان في دراساته الصّوتيّة واللهجيّة والفونولولجيّة.

لقد كانت دراسات جان كانتينو الصّوتيّة واللهجيّة والفونولولجيّة منهجيّة ومنظمة إلى حد كبير، فهو لم يهمل دراسات النّحاة العرب القدامى خاصّة أفكار سيبويه وابن يعيش والزّمخشري، ففي كل مرة يتحدث فيها عن جانب صوتي ما مثل المخارج والصّفات والنّبر.. كان يبدأ ممّا ورد في كتاب سيبويه والمفصل

للزمخشري وشرح المفصل لابن يعيش، خاصّة في كتاب: دروس في علم أصوات العربيّة الذي نشره مستقلا عن الكتاب الأصلي وهو دراسات في اللّسانيّات العربيّة ويمكن أن نذكر هنا ظاهرة الإبدال التي هي صوتيّة وصرفيّة، فقد تحدث جان كانتينو[35](جان كانتينو1966 م) عن إبدال اللام ميما في "ألْ" التعريف في لهجة *[36] قبيلة طيء، وذكر المثال التالي الذي ورد في شرح المفصل لابن يعيش (ليس من امْبِرِّ امْصِيَّام في امْسَفَرِ) أي ليس من البر الصّيام في السّفر [37] (ابن يعيش)، كما استشهد بموقف سيبويه وابن يعيش أيضا في خضم حديثه عن حروف الصّفير الرّخوة وهي السّين والصّاد والزّاي، وذكر ما قاله سيبويه عن نطق الصّاد زايا في مواضع عند بعض القراء، يقول جان كانتينو: ((إلاّ أنّ العرب عرفوا وجود نطق مجهور مطلق لحرف الصّاد وكثير من القراء ومنهم ابن العلاء بالخصوص قد قرأوا: الزّراط المستقيم، بزاي مطبقة مكان الصّاد))[38] (جان كانتينو 1966م)، وهذه الحروف الثّلاثة أي السّين والصّاد والزّاي مخرجها: ممّا بين طرف اللّسان وفوق الثّنايا[39] (سيبويه1430هـ-2009م)، فهذه الحروف رخوة أسنانيّة مغارزيّة وسماها العرب صفيريّة بسبب الصّوت الذي يصحبها أي الصّفير، وهذه الحروف تطرأ عليها تغيرات كثيرة كما يرى كانتينو[40] (جان كانتينو 2017م)، فالسّين مثلا إذا كانت قبل حرف من الحروف اللهويّة مثل الغين والخاء والقاف، ففي القرآن الكريم جاز قراءة قوله تعالى: ﴿**وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَه**﴾ بالصّاد أي ﴿**وَأَصْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ**﴾ (لقمان الاية 20)، وجاز قراءة قوله تعالى: (**مَسَّ صَقَر**) بدلا من﴿**مَسَّ سَقَر**﴾ (القمر الاية 48)، ويقول الزّمخشري في هذا الصّدد في المفصل مع شرح ابن يعيش : ((والسّين إذا وقعت قبل غين أو خاء أو قاف جاز إبدالها صادا كقولك: صالغ، وأصبغ نعمه...))[41](ابن يعيش) ويشرح ابن يعيش هذا القول: ((وإنّما صاغ قلب السّين صادا إذا وقعت قبل هذه الحروف من قبل أنّ هذه الحروف مجهورة مستعليّة والسّين مهموس مستفل، فكرهوا الخروج

منه إلى المستعلي لأنّ ذلك مما يثقل فأبدلوا من السّين صادا لأنّ الصّاد توافق السّين في الهمس والصّفير وتوافق هذه الحروف في الاستعلاء فيتجانس الصّوت ولا يختلف، وهذا العمل شبيه بالإمالة في تقريب الصّوت بعضه من بعض)) فالنّطق دائما يميل إلى الانسجام ويبتعدّ عن الثّقل، وبحكم المجاورة بين هذه الحروف تأثرت ببعضها البعض وفق قوانين صوتيّة شرحها ابن يعيش.

وقد اعتمد جان كانتينو في دراسته للصوتيات العربيّة على أسلوب التدرج التاريخي للالسّنة، حيث كثيرا ما يبدأ بالأنظمة الصّوتيّة في السّاميّة ثم العربيّة القديمة ثم العربيّة الفصحى في زماننا وصولا إلى اللّهجات العربيّة المعاصرة وهو أسلوب جيد لأنّه يجعل القارئ المتخصّص يعرف التغيرات الصّوتيّة الحاصلة عبر القرون، فمثلا لما تحدث عن نظام الحروف في السّاميّة توصل إلى حقائق مهمّة جعلته فيما بعد يقارن بين السّاميّة والفصحى واللّهجات، ويعرف التغيرات الحاصلة، فالسّاميّة كان يغلب على نظام حروفها ظاهرة: الثّواليث المتركبة من ثلاثة أحرف من مخرج واحد حيث وجد ست مجموعات مثلثة تتكون من ثلاثة أحرف من مخرج واحد، مثل: التاء والدّال والدّال المفخمة، ولما جاء إلى العربيّة الفصحى القديمة التي هي لغة ساميّة لم يجد هذا النّظام كما كان في السّاميّة فقد تهدمت بعض الثّواليث مثل الثّالوث المتكون من: ب وپ والباء المفخمة، إذ اضمحلت الباء المفخمة، رغم أنّ جان كانتينو يشك في وجود هذا الحرف في السّاميّة[42] (جان كانتينو 2017م)، إضافة إلى ظاهرة الحروف المنعزلة أي التي لا تنتسب إلى فئة أزواج أو ثواليث وهي عشرة حروف من مجموع ثمانيّة وعشرين ((ذلك أنّ المرحلة الخاصّة بالعربيّة الفصحى في تاريخ تطور نظام الحروف العربيّة مرحلة لا تنظيم فيها مرحلة تفتت وتلاش))[43] (جان كانتينو 2017م) ولما وصل إلى اللّهجات العربيّة المعاصرة تبين له أنّ نظامها تغير كثيرا، ومن مميّزاته أنّ ((أنظمة الحروف حروف الالسّن الدّارجة التي أمكننا النّظر فيها قد

وصلت إلى مرحلة نظمت فيها الأصوات تنظيما جديدا، إمّا بحذف الأصوات المنعزلة أو بدخولها من جديد في مجموعات ثنائيّة أو في ثواليث أو حتى في كتل أوسع))[44] (جان كانتينو 2017م)، ذلك أنّ اللّهجات أكثر استعمالا وتداولا وبالتّالي يحدث تقارب في الحروف وانتظام حتى تجتمع في أزواج وثواليث، أمّا العربيّة الفصحى فقد تولدت منها لهجات كثيرة ولا تستعمل في الحياة اليوميّة في عمومها ولذلك فإنّ نسبة الانتظام تقل، فقد لاحظ مثلا أنّ بعض الأزواج من الحروف قد تلاشى مثل: القاف والكاف، فالقاف في الحضر صارت همزة...[45](جان كانتينو 2017م).

6-منهج جان كانتينو في دراسة الصّوتيات العربيّة: صحيح أنّ جان كانتينو اهتم بدراسة اللّهجات العربيّة المعاصرة لأنّها هي الموجودة أمامه وبين يديه واللّسانيّون عادة ينطلقون من اللّغة المستعملة، إلاّ أنّ جان كانتينو كان يرتب أفكاره ترتيبا تاريخيا، من أجل معرفة التغيرات الخاصّة على نظام الحروف وصفاتها، فهو كان يستفيد من أراء نحاة العربيّة القدامى التي جاءت مبثوثة في ثنايا كتبهم مثل سيبويه وابن يعيش، ويستشهد بشواهدهم التي كانت متنوّعة كالقرآن الكريم وكلام العرب، فهو كما جاء في مقدّمة مترجم كتاب دراسات في اللّسانيّات العربيّة ((يؤمن بتكامل النّظريات اللّسانيّة الحديثة والمناويل النّحويّة القديمة والكلاسيكيّة))[46] (جان كانتينو 1966م) ، وهذه الميزة جعلت دراساته مؤصلة بالقديم الذي قرأه واستعان به، ومدعمة بالجديد الذي وصلت إليه الأبحاث اللّسانيّة والصّوتيّة والفونولوجيّة في العصر الحديث خاصّة نتائج الأبحاث المخبريّة، ويمكن تبيين طريقته في الدّراسة والتحليل في هذه النّقاط:

-ينطلق في تحديد مخارج الحروف في العربيّة ممّا ورد في كتاب سيبويه وشرح المفصل لابن يعيش، وأحيانا يخالفهم في تحديداتهم وأحكامهم؛

–يستعين بنتائج البحث العلمي في الفونولوجيا خاصّة لما يتحدث عن الجوانب الصّوتيّة في اللّهجات العربيّة المعاصرة؛

–يقارن في مقامات عدة بين ما قاله العلماء العرب قديما وما قاله الدّارسون الأوروبيون حديثا، فمثلا حرف اللام قال علماؤنا عنه بأنّه انحرافي، أمّا الأوروبيون فقالو عنه بأنّه جانبي (Latérale)؛

–كثيرا ما يبدأ في الحديث عن الحروف من حيث مخارجها وصفاتها وتصنيفاتها من اللّغة السّاميّة ثم يتدرج إلى العربيّة الفصحى القديمة وصولا إلى اللّهجات العربيّة المعاصرة[47].

استعان جان كانتينو كثيرا بدراسات المستشرقين الأوروبيين الذين كتبوا في الصّوتيات العربيّة قبله، فهو يستشهد بآرائهم إلى جانب آراء النّحاة العرب القدامى ويقارن، ومعنى ذلك أنّ جان كانتينو قد سبقه باحثون غربيون كثر في الكتابة في الصّوتيات العربيّة وتعريف الغرب بالدّرس الصّوتي العربي القديم، وتحليل اللّهجات العربيّة المعاصرة صوتيا، ومن الباحثين الغربيين الذي سبقوا كانتينو في البحث الصّوتي العربي: فولارس (Vollers) في مقاله: نظام أصوات اللّغة العربيّة سنة 1892م، و: و، هـ، قاردنير (W.H.Gardner) في كتابه: صوتيات العربيّة سنة 1925م، كما أنّ كتب اللّهجات العربيّة المعاصرة التي ألفها المستشرقون تقريبا كلّها تتضمن مباحث وقضايا صوتيّة وما أكثرها، مثل مؤلّفات إشتمه (Stumme)، ومؤلّفات: و. مارسي (W.Marcais)*[48]. فهذه البحوث والكتب والمقالات الكثيرة لا يعقل أن تكون بلا تأثير في الفكر الصّوتي الغربي، ولا يعقل أن تكون عبارة عن مجرد كتابات عابرة فليس منطقيا أن تبذل هذه الجهود كلّها من أجل الكتابة ومجرد الفضول، فالباحثون الغربيون المشتغلون بدراسة اللّهجات والصّوتيات العربيّة استطاعوا فَهْمَ كثير من القوانين العلميّة للتحليل الصّوتي ومعرفة الأنظمة الصّوتيّة في اللّغة الواحدة وبين اللغات التي

تنتمي إلى أسرة لغويّة واحدة وبين اللّغة الأم واللّهجات المتولدة منها كما تجلى ذلك في كتاب دروس في علم أصوات العربيّة لجان كانتينو، ولذلك يمكن القول: إنّ ما قام به جان كانتينو وغيره من أبحاث صوتيّة فونولوجيّة على اللّغة العربيّة ولهجاتها له نتيجتان رئيستان:

–النّتيجة الأولى أنّ هؤلاء الباحثين أُعجبوا بالدّراسات الصّوتيّة العربيّة القديمة لدرجة أنّهم تعلموا العربيّة وقرأوا كتاب سيبويه وشرح المفصل لابن يعيش والنّشر في القراءات العشر لابن الجزري.. واستطاعوا ربط تلك الجهود باللّهجات العربيّة الحديثة ودراستها وفق المعطيات التراثيّة ونتائج البحوث الصّوتيّة الغربيّة خاصّة في الفونولوجيا؛

–النّتيجة الثّانيّة: أنّ الباحثين الغربيين أفادوا كثيرا من التراث العربي القديم وممّا توصلوا إليه في أبحاثهم الجديدة في اللّهجات العربيّة والعربيّة الفصحى المعاصرة أيضا، ونقلوا أفكارا كثيرة إلى الفكر اللّسانيّ والصّوتي الغربي المعاصر أي أنّهم عرَّفوا الغربيين بالفكر اللّسانيّ العربي وجعلوهم يستفيدون منه في أبحاثهم الجديدة.

ولو أردنا أن نحدد المنهج العلمي الذي اعتمده جان كانتينو في دراسة الأصوات العربيّة خاصّة من خلال كتاب: دروس في علم أصوات العربيّة؛ لأنّه متخصّص في علم الأصوات أكثر من كتاب دراسات في اللّسانيّات العربيّة، لقلنا إنّ المنهج الذي اعتمده هو: المنهج الوصفي المقارن، لأنّه كان يصف نظام الحروف وصفاتها وكثير من الظّواهر النّطقيّة من الإدغام والنّبر والحركات.

أراء ومواقف لجان كانتينو في الصّوتيات العربيّة: إنّ البحث الطّويل الذي قام به جان كانتينو في الصّوتيات العربيّة واللّهجات العربيّة جعله يبدي آراء ومواقف معينة انطلاقا من قناعاته الشّخصيّة، أو تأثره بمواقف وآراء لعلماء آخرين، ويمكن تقديم بعض النّماذج على ذلك:

-يرى جان كانتينو أنّ العرب لم يعرفوا مصطلحا يقابل مصطلح: (La Phonétique)وذلك في معرض تعريفه لهذا العلم، الذي يقول بأنّه ((هو دراسة أصوات الكلام المنطوق، وينقسم هذا العلم إلى علم الأصوات فونتيك phonétique في حد ذاته، وهو الذي ينظر إلى الأصوات في حد ذاتها ويدرس صفاتها من حيث إخراجها بل وحتى من حيث سماعها، وإلى علم وظائف الأصوات فونولوجيا (phonologie) وهو علم يدرس الأصوات من حيث وظائفها في الاستعمال اللغوي))[49] (جان كانتينو 2017م)، وقد علل ذلك كون النّحاة العرب لم يكونوا يعتبرون دراسة أصوات اللّغة قسما كبيرا من أقسام النّحو بدليل أنّهم لا يخصّصون له جزءا كبيرا كما يخصصون للأبواب الأخرى، لكن يمكن القول هنا إن دراسة أصوات اللّغة تطورت مع مرور الزّمن، فالذي كان يهم النّحاة العرب في البداية هو صون الالسّنة من اللحن الإعرابي الذي يفسد المعاني خاصّة في القرآن الكريم، فكانت جل الكتب نحويّة، أمّا التطرق إلى الأصوات كان قليلا، ولما جاء ابن جني تخصّص في علم الأصوات فألف كتابا سماه: سر صناعة الإعراب، واستعمل لأوّل مرة مصطلح: علم الأصوات والحروف[50] (ابن جني1433هـ-2012م) وهذا المصطلح استعمل كمقابل لمصطلح (phontique) الذي تحدث عنه جان كانتينو؛

-أشار جان كانتينو إلى أنّ مفهوم الأوتار الصّوتيّة ظل مجهولا عند العرب يقول: ((أمّا الأوتار الصّوتيّة فلا يبدو أنّ العرب قد عرفوها)) [51](جان كانتينو 2017م)، فهي ظلت مجهولة عندهم ولم يستطيعوا معرفتها، فيزيولوجيا ولا من حيث وظيفتها في عمليّة النّطق؛

-تحدث كانتينو عن حرف القاف كما جاء عند سيبويه وابن يعيش، فهي من الحروف المجهورة Sonore وقد لاحظ أنّ نطق القاف التقليدي كما هو مكتوب في الكتب أي(ق) مهموس في العربيّة الفصحى اليوم، أي أنّ نطقه يختلف بين

الفصحى القديمة والجديدة فكأنّه يقول: يستحيل أن تحافظ لغة ما على نطقها في كل شي لقرون طويلة، ويرى في مقام آخر أنّ القاف ربما كانت في قسم من أقسام العربيّة القديمة حرفا مجهورا ثم مع مرور الزّمن صارت مهموسة في الفصحى الجديدة [52] (جان كانتينو 2017م) ، لكنّه لما نظر في معظم اللّهجات العربيّة المعاصرة تبين له أنّ القاف تنطق مجهورة وهذا جعله يعتقد إلى حد كبير أنّ القاف فعلا كانت حرفا مجهورا، فليس بالضّرورة أنّ العربيّة الفصحى اليوم هي الصّحيحة وهي المعيار، فاللّهجات أيضا تنتمي إلى هذه العربيّة أو اللسان العربي عموما، فقد تولدت منه، وقد رجح سبب كونه مهموسا في الفصحى المعاصرة بسبب كونه مهموسا في الحضر والمدن، أمّا في المناطق غير الحضريّة فهو مجهور[53](جان كانتينو 2017م).

هذه بعض الآراء والمواقف التي أبداها جان كانتينو في خضم دراسته الصّوتيّة للغة العربيّة ولهجاتها، وهي ملاحظات استنتجها من تأمله في اللّغة العربيّة القديمة والمعاصرة وفي اللّهجات المعاصرة، كما أنّ دراسات المستشرقين الأوروبيين للغة العربيّة أفادته كثيرا، فبنى عليها آراء كثيرة.

خاتمة: في كثير من الأحايين نعتقد أنّ التأصيل للدراسات اللّسانيّة والصّوتيّة العربيّة الحديثة يبدأ بالكتابات العربيّة في حد ذاتها فقط، لكن هناك حلقة يجب الاستفادة منها هي حلقة المستشرقين الذين تعلموا العربيّة وقرأوا تراثنا واستطاعوا التأليف في علوم اللسان خاصّة الصّوتيات والنّحو، بغض النّظر عن مدى مصداقيّة ما كتبوه دائما، وبغض النّظر عن اللّغة التي كتبوا بها، لأنّنا وانطلاقا من بعض ما كتب يتبين أنّ آراءهم جريئة ومهمة، وانطلاقا ممّا كتبه جان كانتينو مثلا يتبين أنّ كتبهم وبحوثهم يجب أن تترجم كلها لنستفيد منها ونعرف ما قالوه ونمحص النّظر فيها لنأخذ بالصّحيح ونصوب الخطأ ونستفيد من مناهجهم التحليليّة، فهؤلاء المستشرقون اطلعوا على كتاب سيبويه وشرح المفصل لابن

يعيش والنّشر في القراءات العشر لابن الجزري، ونحن نعرف قيمة هذه الكتب فهي ليست من الكتب الجامعة أو الكتب المتأخّرة التي لا تحتوي على أفكارا علميّة ونظريات في علوم اللسان، بل إنّ كثيرا من الباحثين العرب المعاصرين لم يستطيعوا قراءة كتاب سيبويه قراءة متمحصة ليستفيدوا منه ويوظفوا أفكاره، أمّا هؤلاء المستشرقون ومن خلال استشهاداتهم وتحليلاتهم فيبدو أنّهم فعلا استغرقوا سنوات في البحث والتنقيب، والأكثر من ذلك أنّ هؤلاء المستشرقين قارنوا بين اللّغة السّاميّة والعربيّة الفصحى القديمة والعربيّة الفصحى المعاصرة واللّهجات المعاصرة الكثيرة جدا وهذا عمل جبار كما تبين في عمل جان كانتينو مثلا.

إنّ الدّراسة الصّوتيّة التي قام بها جان كانتينو مهمّة جدا، فقد استفاد من التراث العربي الأصيل ككتاب سيبويه وشرح المفصل لابن يعيش، وهذه الكتب بالنّسبة إلينا لا غنى عنها ومن استفاد منها فقد أعطى لكتاباته المصداقيّة إلى حد كبير، كما أنّه قارن بين السّاميّة والعربيّة الفصحى القديمة وتطرق إلى التطورات الحاصلة على الحروف والكلمات، ومعظم الظّواهر الصّوتيّة مثل النّبر والتنغيم والمقطع، وما كتبه موجود في المكتبات الفرنسيّة والاوربيّة، وهذا معناه أنّهم قد نقلوا الفكر الصّوتي العربي إلى الغرب، هذا الفكر الواسع جدا، وقد أعجب به كانتينو كما أعجب به غيره، خاصّة ما تعلق بنظريّة مخارج الحروف التي أذهلتهم وجعلتهم يعترفون بقيمتها العلميّة وقدرتها رغم قدمها، فعلماؤنا استطاعوا في ذلك الزّمن ضبط المخارج وإحكامها جيدا، وكذلك صفات الحروف وكل الأحوال العارضة للحروف، بل إنّ علماءنا قديما لم يغفلوا اختلاف التأديات في لغات العرب، وهذا الأمر الآن صار يطلق عليه اللّهجات مع فارق في المفهوم بين اللّغة واللهجة.

صحيح أنّ الغرب قد اطلع قبل مرحلة الاستشراق الأخيرة على التراث العربي القديم، فمثلا كتاب إحصاء العلوم لأبي نصر الفارابي ترجمه: ج. غريمونسي

(G.Grimonsi) في القرن الثّاني عشر وقد اطلع على التّرجمة المستشرق بيكون في القرن الثّالث عشر واستفاد منه وعثر على مصطلح علم اللسان الذي وضعه الفارابي، لكن الحركة الاستشراقيّة التي قامت في القرن التّاسع عشر والعشرين نقلت إلى الغرب كثيرا من الجوانب التي لم تنقل، خاصّة إنّها ليست عبارة عن ترجمات فقط كما في السّابق، لكنّها بحوث ميدانيّة وتحريات في لهجات العرب الحديثة ومقارنتها بالعربيّة الفصحى القديمة، فالخلاصة أنّ جان كانتينو أسهم كغيره من المستشرقين في نقل الفكر الصّوتي العربي إلى الغرب واستطاع أن يفيد من بحوثه في اللّهجات، لأنّ اللّهجات يغلب فيها الجانب النّطقي والجانب الآني الوصفي.

قائمة المصادر والمراجع:

-القرآن الكريم رواية حفص.

1. ابن الجزري، أبو الخير محمّد بن محمّد الدّمشقي-النّشر في القراءات العشر-تقديم: علي محمّد الضّباع-دار الكتب العلميّة-بيروت-لبنان-ط1 -1418هـ-1998م.
2. ابن جني، أبو الفتح عثمان-سر صناعة الإعراب-تح: محمّد حسن محمّد حسن إسماعيل-دار الكتب العلميّة-بيروت-لبنان-ط3 -1433هـ-2012م.
3. ابن سينا، أبو علي الحسين بن عبد الله-رسالة أسباب حدوث الحروف-تح: محمّد حسان الطّيان، يحي مير علم-مطبوعات مجمع اللّغة العربيّة بدمشق-دط، دتا.
4. ابن يعيش، أبو البقاء يعيش بن علي-شرح المفصل-مراجعة: مشيخة الأزهر-الطّباعة المنيريّة-مصر-دط-دتا.
5. جان كانتينو:
6. دراسات في اللّسانيّات العربيّة-تر: محمّد الشّاوش-دار سيناترا-معهد تونس للترجمة-ط1-2017.
7. دروس في علم أصوات العربيّة-تر: صالح القرمادي-نشريات مركز الدّراسات والبحوث الاقتصاديّة والاجتماعيّة-ط1966م.
8. سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر-كتاب سيبويه-تح: عبد السّلام محمّد هارون-مكتبة الخانجي-القاهرة-مصر-ط5 -1430هـ-2009م.

9. عبد الرّحمن الحاج صالح–بحوث ودراسات في اللّسانيّات العربيّة–ج2–موفم للنشر–الجزائر–ط2012م.

10. المنظمة العربيّة للتربيّة والثّقافة والعلوم–المعجم الموحد لمصطلحات اللّسانيّات–مطبعة المنظمة العربيّة للتربيّة والعلوم والثّقافة–ط1989م.

الهوامش:

(1) ينظر: جان كانتينو–دراسات في اللّسانيّات العربيّة–تر: محمّد الشّاوش–دار سيناترا–معهد تونس للترجمة–ط1–2017–ص7.

(2) أدرج مترجم كتاب: دراسات في اللّسانيّات العربيّة الدّكتور: محمّد الشّاوش الكلمة التي ألقاها السّيد وليام مارسي في جلسة أكاديميّة الرّسوم والآداب المنعقدة في 20أفريل 1956م وكانت بعنوان: "جان كانتينو"، حيث تحدث عن حياته ومؤلفاته وتحولاته الفكريّة.(ينظر المرجع نفسه–ص23–28).

(3) من المهم أن نشير هنا أنّه ظهرت دراسات صوتيّة كثيرة قبل جان كانتينو ومعظمها قام بها المستشرقون الألمان أمثال: فلّلين (Wallin)، سنة1855م، وبروكيه (Brüke) سنة 1860م، ولبسيوس(Lepsius) سنة 1861م، وفولارس(Vollers) الذي كتب بحثا مهما سنة 1892م عنوانه: نظام الأصوات العربيّة، حيث جمع فيه معلومات وردت في كتب النّحاة العرب ، وأرتور شاده (Schaade) الذي كتب بحثا عنوانه: علم الأصوات عند سيبويه وعلماء آخرون كثيرون كتبوا في الصّوتيات العربيّة، ومعظمها لم تترجم، مع العلم أن هؤلاء المستشرقين لم يقتصروا في بحوثهم على ما جاء في كتب النّحاة القدامى كسيبويه والزّمخشري وابن يعيش، بل قاموا بدراسات في اللّهجات العربيّة الحديثة مثل دراسة: و. مارسي (W.Marçais) للهجة تلمسان، سنة 1902م، وكتابه في لهجة أولاد إبراهيم بمدينة صيدا سنة 1908م، وما كتاب: دراسات في اللّسانيّات العربيّة لجان كانتينو إلا إضافة إلى هذا المجال من الدّراسات اللهجيّة الحديثة. (ينظر: جان كانتينو–دروس في علم أصوات العربيّة–

تر: صالح القرمادي–نشريات مركز الدّراسات والبحوث الاقتصاديّة والاجتماعيّة–ط1966م–ص11–12).

(4) تحدث وليام مارسي عن فكر جان كانتينو في كلمته السّابقة الذّكر، وبين مراحل فكره واهتمامه باللّهجات العربيّة، وكيف صارت من أكبر اهتماماته (ينظر: جان كانتينو–**دراسات في اللّسانيّات العربيّة**–ص26).

(5) ينظر: جان كانتينو–دروس في علم أصوات العربيّة–ص17.

(6) ينظر: المرجع نفسه–ص22–23.

(7) مصطلح: Affriquée ترجم في المعجم الموحد لمصطلحات اللّسانيّات بـ: معطّش(شديد مرخًّى).(ينظر: المنظمة العربيّة للتربيّة والثّقافة والعلوم–المعجم الموحد لمصطلحات اللّسانيّات– مطبعة المنظمة العربيّة للتربيّة والعلوم والثّقافة–ط1989م–ص8).

(8) ينظر: جان كانتينو–دروس في علم أصوات العربيّة–ص23–24.

(9) جان كانتينو–دروس في علم أصوات العربيّة–ص25.

(10) المرجع نفسه.

(11) ورد في المعجم الموحد لمصطلحات اللّسانيّات أن مصطلح المفخم مذكور عند بعض اللغويين وربما سمي: صفاقي أيضا نسبة إلى صفاق الشّجر، ويقابله بالفرنسيّة: (Vélarisé) وبالإنجليزيّة (Retracted).(ينظر: المنظمة العربيّة–المعجم الموحد لمصطلحات اللّسانيّات–ص123).

(12) نظر: سيبويه (أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر)–الكتاب –تح: عبد السّلام محمّد هارون–مكتبة الخانجي–القاهرة–مصر–ط5 –1430هـ–2009م–ج4–ص246.

(13) ينظر: ابن سينا (أبو علي الحسين بن عبد الله)–رسالة أسباب حدوث الحروف–تح: محمّد حسان الطّيان، يحي مير علم–مطبوعات مجمع اللّغة العربيّة بدمشق–دط،دتا–ص77.

(14) ينظر: ابن جني (أبو الفتح عثمان)–سر صناعة الإعراب–تح: محمّد حسن محمّد حسن إسماعيل–دار الكتب العلميّة–بيروت–لبنان– ط3 –1433هـ–2012م–ج1–ص17.

(15) ابن الجزري (أبو الخير محمّد بن محمّد الدّمشقي)–النّشر في القراءات العشر–تقديم: علي محمّد الضّباع–دار الكتب العلميّة–بيروت–لبنان–ط1 –1418هـ–1998م–ج1–ص161.

(16) نظر: جان كانتينو–دروس في علم أصوات العربيّة–ص25–26.

(17) ينظر: المرجع نفسه–ص27–28.

(18) لقد فصل الدّكتور عبد الرّحمن الحاج صالح في هذا الموضوع جيدا لما تحدث في سلسلة: مدخل إلى علم اللسان الحديث–الباب الثّاني في المذاهب والنّظريات اللّسانيّة الحديثة– فقد بين أفكار علماء حلقة براغ الفونولوجيّة وما جاءوا به من آراء متميزة، منها حديثهم عن التقابلات الموجودة بين الفونيمات التي قد تكون ثنائيّة أو ثلاثيّة وربّما حتى رباعيّة في بعض اللغات. (ينظر: عبد الرّحمن الحاج صالح–بحوث ودراسات في اللّسانيّات العربيّة–موفم للنشر–الجزائر–ط2012م– ج2–ص247–250).

(19) ينظر: جان كانتينو–دروس في علم أصوات العربيّة–ص40.

(20) ينظر: المرجع نفسه –ص147–148.

(21) جان كانتينو–دروس في علم أصوات العربيّة–ص148–149.

(22) جان كانتينو–المرجع نفسه–ص191.

(23) ينظر: جان–المرجع نفسه –ص191.192.

(24) المرجع السّابق –194.

(25) ينظر المرجع نفسه –ص194–195.

(26) المرجع نفسه–ص197.

(27) نظر: المرجع نفسه–ص197–098.

(28) مصطلح: Dialectologie ترجمه صالح القرمادي في كتاب: دروس في علم أصوات العربيّة بـ: الالسّنيّة، وقد فضلت مصطلح: علم اللّهجات كما هو في المعجم الموحد لمصطلحات اللّسانيّات.

(29) ينظر: جان كانتينو–دراسات في اللّسانيّات العربيّة–ص13–43.

(30) أي الفونولوجي.

(31) ينظر: جان كانتينو–دراسات في اللّسانيّات العربيّة–ص156–158.

(32) ينظر: المرجع نفسه–ص160–161.

(33) ينظر: المرجع نفسه–ص212–215.

(34) لمعرفة أسماء هؤلاء المستشرقين ودراساتهم يمكن الرّجوع إلى مبحث: علم اللّهجات العربيّة في كتاب: دراسات في اللّسانيّات العربيّة لجان كانتينو من الصّفحة 235 إلى276.

(35) ينظر: جان كانتينو–دروس في علم أصوات العربيّة–ص78.

(36) قديما كان علماؤنا يستعملون مصطلح "لغة" ولا يستعملون مصطلح " لهجة" الجديد.

(37) ينظر: ابن يعيش، أبو البقاء يعيش بن علي–شرح المفصل–مراجعة: مشيخة الأزهر–الطّباعة المنيريّة–مصر–دط–دتا–ج10–ص33.

(38) جان كانتينو–دروس في علم أصوات العربيّة–ص72.

(39) ينظر: سيبويه–**الكتاب**–ج4–ص433.

(40) ينظر: جان كانتينو–دروس في علم أصوات العربيّة–ص73.

(41) ينظر: ابن يعيش–شرح المفصل–ج10–ص51.

(42) ينظر: جان كانتينو–دروس في علم أصوات العربيّة–ص27–29.

(43) المرجع نفسه –ص40.

(44) المرجع نفسه–ص40.

(45) ينظر: المرجع نفسه–ص41.

(46) جان كانتينو–دراسات في اللّسانيّات العربيّة–ص9.

(47) انظر على سبيل المثال حديثه عن الضّاد الانحرافيّة، حيث بدأ بما كان في السّاميّة القديمة من ثالوث الحروف الشّديدة الأسنانيّة ذات زائدة انحرافيّة، وأنّها كانت موجودة في السّاميّة القديمة وبقيت في العربيّة الفصحى وهي ميزة تتميز بها كما يرى كثير من الدّراسين وهو حرف عسير النّطق على غير العربي، بل إن العرب المعاصرين لا ينطقونه جميعا بطريقة صحيحة إلاّ من كان متخصّصا أو مهتما بأحكام التجويد، فهو من أصعب الحروف نطقا لدرجة أنّ العرب يسمون :النّاطقين بالضّاد، والعربيّة تسمى: لغة الضّاد (ينظر: جان كانتينو–دروس في علم أصوات العربيّة–ص84–85).

(48) للتوسع أكثر يمكن الرّجوع إلى كتاب دراسات في اللّسانيّات العربيّة في الجزء الخاص بعلم الأصوات الذي نشر مستقلا وأعاد جان كانتينو النّظر فيه فيما بعد(ص42–43).

(49) جان كانتينو–دروس في علم أصوات العربيّة–ص17.

(50) ينظر: ابن جني، أبو الفتح عثمان، سر صناعة الإعراب–ج1–ص22.

(51) جان كانتينو–دروس في علم أصوات العربيّة–ص18.

(52) ينظر: المرجع نفسه–ص35.

(53) ينظر: المرجع نفسه–ص106–107.